زمردة

تأليف: مــرح نـــمر

الإهداء

إلى عمـاداتِ طفولتي العذبة،التي أعشقها..

إلى من صنعوني فكرة،وآمنوا بي...

إلى والديّ.. محمّـد، وسلام...

ثمّ إلى مـرح الطفلة..

أهدي هذا الكتاب.

عزيزتي زمـرّدة، هذهِ رسالةٌ من المستقبلِ إليكِ، من ٢٠٢٤ تحديداً.

لا بدّ أنك الآن غارقة في غرفتك، منهمكة في ممارسة طفولتكِ الشقيّة، تجدلينَ شعركِ وتضعينَ فراشةً ورديّة كبيرة على مقدّمة رأسكِ، ترتدينَ فستاناً ما، أو بيجاما باللون الأصفرِ الذي تحبين.

أستطيع أن ألمسَ بشرتكِ الحارّة، عينيكِ البريئتينِ، يتوسطهما شعلةٌ من اللّمعان،ستفقدينها حين تكبرين، أو ربّما سيفقدوكِ إيّـاها،أستطيع رؤية خدّيك المتوردينِ بلونِ الكرز، أستطيعُ أن أحسّ بفوضويّتكِ، بعبثِ الطفلة في داخلك، برائحتكِ اللطيفة، رائحة الأطفال، وأن أشعرَ بملمسِ يديكِ الناعمتين حين كان أقسى ما لمستهُ هو مقبضَ دراجتكِ الهوائيّة.

أعتقدُ أنك غارقة في قصّة ما، أو مجلّة أسامة التي لم تفوّتي منها عدداً، أو ربّما تجلسينَ قرب المذياعِ

تستمعينَ إلى حزازير (هديتك بـأيدك) التي كان يجريها محمد ذو الغنى كل يومِ جمعة، وبيدكِ دفترك الخشبيّ،الذي أهداكِ إياه والدكِ، تدونينَ عليه كلّ ما سرقتهِ من معلومات، كانَ عمرك ثلاثة عشرَ سنةً وتعرفينَ الأبيضينِ والأسودينِ والأصغرينِ والأكبرينِ والفرقدين، وتحفظين عشرات القصائِد، كنتِ تعشقينَ نزار قبّاني، وتحفظينَ ما يقارب الخمسمئة كلمة من قصيدةِ بلقيس، تخبئينَ الجرائد،في محاولة لحماية التاريخ من أن يسرق يوماً ما، تقرأينَ كلّ شيء يُقرأ،لافتات المحال، فهارس الكتب،ومعلومات صنع الآيس كريم.

كنتِ تنامينَ والقلمُ في يدكِ،كنتِ تجرينَ إحصائيات، تتعلّمين لغة الجسد، وتفسّرينها على وجوه الجارات

في الصباح عندما يدلفنَ لشرب القهوة عند والدتكِ، وبعد ذهابهنّ تركضين لحضن أبيكِ مسرعةً، بابا: "حين قالت كذا رمشت كثيراً ولمست أنفها ثلاث مرّات، أحسستُ أنها توتّرت حينَ كذا، هزّت رجليها كثيراً "، وكان حضن والدكِ يتّسع كل هذه الأخبار والحكايات، كنتِ ترسمينَ كثيراً وجوه من تحبّين، وتعلّقينَ رسوماتك على الجدران، فتخاطبينَ الصورة وتخاطبينَ صاحبها حينَ يغيب، حين تشتاقين..

أذكر تماماً حينَ بدأ الشّيبُ يظهر في رأس أبيكِ، رسمتِ صورةً لهُ وقتَ كان شابّاً، ولشدّة ما تحبّينه، كانت الصورة طبق الأصلِ عن والدكِ، سهرتِ طوال الليلِ تستمعينَ لعبد الحليم، أهواك، كنتِ تمارسينَ الحبّ كمادّة خام على كل من هم في حياتكِ، على

صورةِ والدكِ، كانت مراهقتكِ عذبةٌ جدّاً، أنهيتِ الصّورة، وعلّقتها على موقدِ الغاز، وكتبتِ بقلمِ الحبر على غطائه الأبيض المتحرّك" أحقّاً شبتَ يا أحلى الشبابِ، وغطّى الثلجُ رأسكَ في غيابي، وظنّ النّاس أنك صرتَ كهلا، دعني أحضنُ الشيباتَ دعني، لأخبرهنّ عن شيخِ الشبابِ" حينها بكيتِ على الغاز، بكيت لأنك كثيراً ما تحبّين أبيكِ، ولأنّه الحبّ الوحيد الذي عرفهُ قلبك الصغير، عدت على أطراف أصابعك إلى غرفتكِ، كنت تطيرين بفعل الحماسة، كيف سيشعر حينَ يفيقُ صباحاً ليعدّ قهوته ويراها! أكاد أجزمُ أنك ما نمتِ يومها من الحماسة.

***

كان هناك صورة في ألبوم العائلة،عناصرها أنتِ وأخيك تحتضنانِ بعضكما كما يحتضنُ الأطفال بعضهم،بكل الأيدي وكلّ المِساحة بين كتفيكِ وكتفيهِ، وتنظران إلى فوق، كنتِ صغيرة وقصيرة تصلينَ وأخوكِ إلى خصر والدتكِ، وإلى ركبةِ والدكِ، وفوقكما بمترٍ تقريباً، والدتكِ تمسك الكميرا، وتقول لكما، "ماما قولوا تشيز" فقلتما تشيز، ولمعت عيونكما لأن " تشيز" كانت عاملاً يبعث على الضحك والسعادة، ولأن قدرتكما التعبيريّة كانت في أقصاها، أخذتِ الصورة، ووضعتِ لها إطاراً،ولاصقاً وبعض الخرزِ الملوّن،وعلقتها في غرفتكِ على الحائط،هكذا كان يتجسّـد تعبيركِ عن الحبّ حينما كنتِ طفلة.

كنتِ كثيراً ماتعلقين صور من تحبين على الجدران،كي تريها كيفما أدرتِ وجهكِ، كي يسكنكُ شعور الأمان، بأن من تحبيهم هُنا،في قلبك أولاً ثم حولكِ في كلّ مكان.

كنتِ ترقصينَ كثيراً، تلبسينَ تنوّرة واسعة وتتمايلينَ مع الموسيقا، رقصاً تعبيرياً خالصاً، بانسيابيّـة، وبانسجامٍ تام، فقد ألفت روحكِ الموسيقا منذ طفولتكِ، خاصّـة حينَ اكتشفت أن حبالكِ الصوتيّة لذيذة، وأنها مادّة أولية لصنع مغنّية، لربّما تخبر الكونَ عن صوتها يوماً.

حينَ كان ينتهي مسلسل أهل الغرام، لم تبدّلي القناةَ يوماً، بل كنتِ ترفعينَ مستوى الصّوت، وتغنّينَ،" ألا حبّذا، حبّذا، حبّذا، حبيبُ تحمّلتُ منهُ الأذى" من

سمعكِ ظنّ فؤادكِ مفطوراً بسبب حبٍّ طفوليّ ما، لكنهم لم يدركوا يوماً أنك في حالة حبّ مع الحبّ نفسهُ، كنتِ ولا زلتِ كذلك.

***

كبرتِ في عائلة تحب الموسيقا،كل مساء كانت أنغام أم كلثوم تصدح بين جدران المنزل،الأنوار خافتة،في الصيف،كلّ يجلس مع أحلامه وأمنياته ويبثّها إلى السماءِ،أمنيةً أمنية، وحين يعمّ الهدوء أحياناً،ينتشي أحدنا،على غفلة،ثم يبدأ الغناء مع الست، فيجاريه الآخر،فنجد أننا بسرعة،صرنا جالسينَ في المقاعد الأمامية للحفلة، نغني، ونصفّق منسجمينَ، سعيدينَ،

كأننا نملكُ بطاقة سحرية، تعيدنا إلى الماضي،
بانسجامٍ تامّ

كيف تكبرينَ يا زمردة،وتبررينَ للشوارع والمارّة
أنك فتاة حين تمشي في الشارع وتسمع أغنية ما تغني معها، هكذا، بلا أي مبالاة!

***

في الصّف السابع كانت مواضيعُ التّعبير خاصّتك، تُبكي آنسة اللغة العربية، مرهفة المشاعر
والأحاسيس، التي رأت فيكِ لوحةً لم تكتمل بعد، كاتبةَ المستقبل، يومها استدعت أبويكِ للمدرسة، كليهما، على عجلٍ، وأول ما استهلّت به لقاءها ، "كنت كتير متشوقة أعرف مين أبوها وأمها لمرح، أنتو مخلفين

بنت رائعة،حسّاسة، رح تصير شي كتير كبير يوماً ما" وأهدتكِ حينها كتاب الأرواح المتمرّدة لجبران خليل جبران، وكتبت لكِ عليه ملاحظة ثمينة، اقرأي.

أمّا عن معلّمة اللغة العربية في الصف الثّامن، سميرة،كانت تترك آخر ربع ساعة من الحصّة، لتغنّي لها،"قال جاني بعد يومين" وتنتهي الأغنية بدمعةٍ صغيرة تسيرُ خجولةً على خدّها،وتقول لكِ: ارجعي مكانك، بحدّة هكذا، وتدير وجهها للشبّاك، كي لا تنتبهي أنتِ والطّلاب، أن هناكَ شيئاً موجعاً في صدرها، اسمهُ حبّ، تحييه الأغنيات، وتجعلنا نبكي إثْراً لهُ.

كنتِ الأولى على صفّك،ينافسكِ رفيقكِ فتارةً تسبقينهُ،وتارة يسبقكِ، كان ذكيّاً لطيفاً، يجمعكما حب التفوق، وأنا التميّز، وبعضُ المشاعرِ الطفوليّة البريئة، فتغتنمانِ وقت " حصة الرياضة " في استعارة الكتب من مكتبة المدرسة، ودواوين الشعرِ وقراءتها سويّاً، كان يتذرّع أن كلمة حبّ أو أحبّك غير ظاهرة في الطباعة، ويسألك أن تقرأيها لهُ، ليسمعها بصوتكِ، كنتِ تقرأينها، مرّتينِ وثلاثة، مدّعية أنك لم تفهمي ما يشيرُ إليه، وحين كنت تغيبينَ عن الصف كان يرسل لكِ آلإملاء الانكليزيّة مرفقةً بكلمة love بين كلمات آلإملاء، كنتِ تحفظيها وأنتِ على درايةً كاملة،أنها غير مطلوبة في الإملاء،بل مطلوبة في قلبهِ هوَ.

لشدّة ماكان ذكيّاً، كان حبّه يغريكِ، مرّة سألكِ سؤالاً على سبيل التعجيز، "مرح،اعطيني فعل أمر فيه ياء المؤنثة المخاطبة" أخذتِ تفكرين لحظات، ثمّ ضحكتِ وقلتِ له: " مافي، كُليني، اشربيني، أي والله مافي " فلمعتَ عيناهُ وقال:" أحبّيني ".

ستكتشفينَ بعد أن تتجاوزي الثانية والعشرين، أنّه كان الشّاب الوحيد الذي يستهويكِ تلميحهُ عن الحب.

كنتِ تحبّين الحبّ، وجودَه، وأنّه أوجدنا، وأنه الطريقة المُثلى التي ابتكرها الخالق كي يستعذب الرجلُ والمرأة ما يقومونَ بهِ لصنعِ الخليقة، كيف يديمنا الحبّ، كيف يحيينا، وكيف يميتنا بعذوبة.

كنتِ تحبين التأمل في السماء، كل يوم في حديقة البيت الأمامية، نائمة على ظهرك ووجهك للسماء،

تحت رأسك يديك الاثنتين كوسادة صغيرة، تتضح الرؤية من بين أوراق شجرة التوت الغضّة، تسرحينَ لساعات طوال،في النهار تتمنين لو كنت

عصفوراً،وفي الليل نجمة، كنت تحبين العصافير كثيراً،تجدين فيها الحرّية والشّغف التي لو وجدت وتجددت بهذه الكميّة في إنسان واحد،لما ذاق طعم الملل واليأس يوماً، يستيقظ العصفور كل صباح، يغنّي، ويضرب جناحيه شغوفاً بالحياة، بألوان الأشجار، بأصوات الرفيقاتِ، يطير مثل بهلوان، يعرض مهاراتهُ ويتقلّب في السماء، مبهراً، حرّاً، جذاباً.

جزءٌ كبيرٌ من طفولتك كان على ناشونال جيوغرافيك،فلا بأس بإلغاء حلقة توم آند جيري للمرّة الألف،لكنّك لن تفوّتي حتماً ألعاب العقل، تعلّمتِ منه التحليل والمراقبة، الانتباه والتيقّظ، حفظ الألوان والأماكن، والآن كيف تكبرين يا زمردة وتفسّرين للآخرين أنكِ تفضّلي مشاهدةَ أحدث سلسلة من شارلوك هولمز، على مشاهدة مسلسل تركيّ، أو إمضاء الوقت بلا هدف.

لهم الحقّ بألّا يفهموكِ، لم يعش واحدهم طفولتكِ، تفاصيلها.

كانت والدتكِ مهتمّة بأدق تفاصيل الطفولة، بدءاً من الموسيقا التي كانت تُسمعكِ إياها وأنتِ في بطنها، إلى الأوراق والاقلام التي رُميت بين يديّ طفلة بعمر

السنتينِ، إلى التلوين في اتجاه واحدٍ في الخامسة، إلى التحفيز والتشجيعِ وقانون المكافأة والعِقاب، ثمّ إلى تحوّل العلاقة من أمومةٍ إلى رفقة، والبدء بالاهتمام بِحكايا الأنوثة اللطيفة.

***

كبرتِ يا صغيرتي، وأنا أحدّثك من المستقبلِ.

كبرتِ وكنتِ وفيّة لكل تفاصيلِ طفولتكِ البهيّة، كل تلك التصرفات الواعية منها وغير الواعية، صقلت شخصيّة مبهرة، ذكيّة، طموحة، جريئة، واثقة، مثقفة، وواعية.

وكل ذاكَ الغنجِ الطفوليّ خلقَ صبيّةً حينَ تراها، تحسّها أنثى، واحدة حقيقيّـة.

كبرتِ ولا زالت يداكِ ناعمتينِ جدّاً، ووحيدتينِ جدّاً تبردانِ في كلّ شتاء، لا زالت رائحتكِ طفوليّة، ولا زالت روحكِ طفلة، لازال شغفكُ ذاتهُ، وعود قلبكِ الأخضر، سقيتيهِ كل يومٍ، فَكبُر.

كبرتِ ولا زلتِ حينَ تحبّينَ أحداً تسارعينَ إلى رسمِ وجههِ.

كبرتِ،وهذا القلم الذي سكنَ مساحة من جسدكِ، كان وفيّاً لراحةِ يدكِ، للسبابة والإبهام، وصنعكِ كاتبةً صغيرة، يكفيها شهادةً أنّها حينَ تكتُب، تبتلّ عيونُ القارئ بطبقةٍ خجولة من الدّمع.

أنّها تؤثّر، وبراءةَ إحساسها تجعلهُ يصل.

كبرتِ ولا زالتِ تغنّين، كلّ يوم، حين تصنعين القهوة، وحين تطبخين، وحينَ تكون أفكارك مضطربة.

كبرتِ ولا زلتِ تحبّين أغنية" ألا حبّذا" وهي الصوت الذي يتصاعدُ من هاتفكِ حينَ يتصل بك أحد ما، فتذكّرك بشيء من الماضي، تجعلُ حواسكِ تضطربُ.

كبرتِ ولا زلتِ تحبّينَ أبويكِ،ولا زلتِ تجدلينَ شعركِ، وتغرقينَ في الكتب.

كبرتِ ولا زالتِ تحبين نزار قباني،ولا زلتِ تحفظين الشعر.

كبرتِ ولا زلتِ وحيدة، مثل طفلٍ سرقوا لعبتهُ الوحيدة،لم يستطع أحد أن يقرب حدود أمانك، لا زلتِ خائفة، ولا زلتِ تبحثينَ عن الأمان،

كبرتِ وتحوّلتِ من شعلةٍ إلى جمرة، تحرقُ، تلهبُ باستمرار، كلّما اقترب شيئاً منها أحرقتهُ، وكلّما ابتعد عنها، بردت، وانطفأت من جديد.

كبرتِ ولم تفهمي الحبّ، ولم تحتفلي يوماً بعيد الحبّ، لازالت نظرتك قائمة، أن كل شيء يستعملهُ الجميع هو بالٍ،وما للحبّ في هذه الأرض عيدُ ، لازال لامعاً بالنسبة لكِ، أفلاطونيّاً و على قدرٍ من الفروسيّة، لازال حُلواً وصعباً، وبعيداً، كلما كان بعيداً، كلّما كان أحلى، كلّما جاء على قدر اللهفة، بحجم الانتظار، وبقوة الأحلام، عليهِ أن يكونَ واحداً، لايقبل التعددّ، وأبديّ، لا ينهيهِ موتٌ، ولا تغلبهُ ذاكرة، يعيشُ في الوجدان، وذاكرة الوجدان لا تموت.

كبرتِ ولا زلتِ تبحثينَ عن الأمان، ولا زلتِ تحبّينَ عناقاتِ الأيدي، وتفتّشين في الوجوه كل صباح عن حلمٍ ضائع لم تجديهِ يوماً، بكتفينِ عريضتينِ ووجهٍ يشعّ نوراً، بعينينِ حنونتين، ويدينِ دافئتين، وصوتٍ عذب، وضحكةٍ بيضاء، ونفسٍ متسامحة، وشخصيّة رزينة، عن ثقةٍ وكينونةٍ قوية، عن وجودٍ بشريّ يليقُ بكِ، ليس بشريّاً فحسب، يجب أن يكونَ وجوداً خالصاً.

كبرتِ ولم تجدي شابّاً يجيد التلميح كرفيقكِ في الصف الثامن، يعرفون الكلام، يدورونَ حول الأقاويلِ، يكسرون قوانين الفيزياء ويتعلّقون بالسماء بكلماتهم،

فلا من نيوتن ولا من جاذبيّة ، لم يعرفوا أن يكونوا مثلهُ، لم يعرفوا أن هناك كلماتٌ تسمعيها بقلبكِ، لا بأذنيكِ، ينطقون أحبّك هكذا، بادرةً، على طبقٍ تقليديّ، فيهِ خمسة أحرف، وانتهى.

كبرتِ، وحولك ضجيجُ كثير، وناسٌ كُثُـر، بِلا وجود، ولا زلتِ وحيدة، تشعرين أنّك لا تنتمين إلى هذا المكان،أو هذا الزمان، فلا فرق بين مكانٍ وزمانٍ حين يكون الكون بهذا الهدوء في عينيكِ.

أفقدوكِ البريق، لا يعرف أحد معنى أن تكون كائناً حسّاساً، ففـي هذا الوقت تعتبر الحساسية حكراً على الضعفاء، لا يعرفون معنى أن يكون المرءُ حساساً وقويّـاً، تبكيهِ عجوز شاهدها في الشارع، تبكيه

الحروب، يبكيه مشهدُ في فيلمٍ ما، تبكيه أغنية، ولا يبكيه أن فُلان من الناس تخلّى عنهُ، أو أن فلان أذاهُ، أو أنّه أدرك أن البشرية تفنى، فلتكُن!

كبرتِ ولا زالت صورتكِ مع أسامـة (أخيك) على حائط غرفتكِ، زال نصفُ الخرزِ الذي وضعتِه حول إطارها، زال اللاصق على أطراف الإطار، زال بريق الصّورة، كبرتِ وكبر أخيكِ، لكن لازالت عيناكِ تلمعانِ بالصورة، ولازالتا تحرقانِ قلبكِ الصغير حين تريها، ولا زال حضن أخيك يتسعُ لكِ بكلّ حبّ.

***

على رفّ الخزانة، يوجدُ صندوق خشبيّ، بالضبط كالذي تخيّلهُ رامي كوسا حينَ كتبَ: "بخزانتي صندوق،صرلو عمر عندي، جوّاتو في كمشة صور وسرار وحكايات... في صورة يوم العيد، كنت بحضن ستّي ومن مسبحة جدّي بقي خيط وسبع حبّات، في كلمة بحبّك من رفيق مدرستي، صندوقي في نص العمر، عيلة وصِبا ورفقات"

لكنّ صندوقكِ الخشبيّ لا يحوي صورة لك في حضن جدّتك،التي ماتت قبلَ أن تريها، صندوقكِ فيه رسالةُ حبّ، بتاريخ ١٨ تشرين الأوّل ١٩٩٨ بخطّ حبيبكِ الأول، والدكِ، الذي كتبها لحبيبتهِ الأخيرة، أمّك، عن

تداعياتِ الحضنِ الأول، وتصوّرات الأولاد، والحياة الزوجيّة، عن حبّ قويّ، دامَ خمسة وعشرينَ سنةً ويستمرّ، عن حبّ "أيام زمان" النّقي والصادق والحُلو.

بجانبها ساعةٌ فرنسيّة، لا تعمل، أهداكِ أياها جدّك حين حصلتِ على شهادة التعليم الأساسيّ، يكادُ محيطها لا يكفي معصمَ يدكِ، ولا زلتِ تلبسينها وتحبّينها رغم أنّك لا تحبين الساعات.

مع الرّسالة والساعة يوجدُ مخالفة مرور،

بتاريخ٢٠٠٢حين كان عمركِ ثلاثةَ شهور، مرضتِ فذهبَ فارسكِ الحنون ليحضر لكِ الدواء بسرعة، فَخولفَ، واحتفظَ لكِ بالقصاصة الورقيّة التي تكافئكِ

عمراً، كيَ تُشبعي النوستالجيا خاصّتكِ حينَ تكبرين، هذه القطعة الخشبيّة حين تفتحيها، يخرجُ صوتُ الماضي، طعمُ الدّمعة، ورائحة الرّبيع، والطفولة.

كبرتِ وصرتِ طويلةَ القامة، وطويلةَ العنق، أطولَ من والدتكِ، صرتِ حينَ تحتضنيها، وهي العادة اليوميّة أو المسكن الذي تتجرعيه خمس مراتِ في اليوم الواحد، تصلُ هي إلى كتفيكِ، صرتِ أنتِ من يَحضُن، وهيَ من يحتضَن.

كبرتِ ولم تتوقفي عن الاحصائيات،عن المقارنة، والتحليل والشكّ،قرأتِ يوماً أن الشكّ هو عمود التطور وعماده، هو دليل العقل،وثبوت القيمة، وأخذت تشكّين في كل شيء، حتى صارت هواية، كممارسة نوع من الرياضة، ودائماً ما تُودي إلى حقائقَ بحتة.

قرأتِ أكثر، وكتبت أكثر بكثير، قال لكِ كاتبكُ المفضل مرّة: لا تكتبي لتستعرضي، أكتبي أشياء عادية، لا تجعلي هدف الكتابة الأسمى هو الاستعراض، بل الشغف، والحبّ، والعادية البحتة.

من يومها، تحسّنت رؤيتك لأضعافٍ مضاعفة، فعلاً، نحن لسنا هنا لنستعرض، لسنا في موضع من

الجغرافيا والتاريخ (الذاتي) الذي يسمحُ لنا أن نلقي على الآخرين أحكام، نحنُ هنا، لنحكي الحكاية، بأسلوبنا، لنلعب على حبل الكلمات، كبهلوان، ليسَ أكثر.

كبرتِ ورضيتِ لمن حولك أن تكوني مادةً للدراسة، والتقليد الأعمى، علّهم يصلون يوماً، فلا مشكلةَ بالسير على نفس الطريق،لطالما لن تنظر واحدتهم في المرآة وترى وجهكِ، ولطالما أن الحسدَ طبيعة فطرية، موجودة، رغماً عن أنف الإيثار،رغماً عن أنف الرضا، والتسامح، لكنّه عادلٌ، وهذا يكفي، أن يقتلَ صاحبه أولاً، هذا يكفي.

كبرتِ ولم تتعمّدي يوماً حبّ أي نوع من انواع الفنّ أو الموسيقا أو الرياضة لأجل لفت انتباه أحدٍ ما، ولا الخروج في خضمّ عاصفة ما لسماع أغنيته المفضلة تحت المطر، فتغرقين بمجرد تمثيلياتٍ بنّاتية مصطنعة، وحين تجفّ العاصفة، يظل قلبك مبتلاً بنوع من أنواع اللّغو، مقحمةً قطعتك الصغيرة في يسار صدرك ببعض الألاعيبِ، التي مالكِ، ومالَها فيها.

ولا أن تقتحمي عالمَ الرياضة، لأجلهِ مثلاً، تمضي ساعاتٍ لحفظ أسماء اللاعبين، والمدرّب، وماذا يعني تسلل، و تشكيلة، وكرت أصفر وأحمر، في محاولةٍ لإجبار قلبك على أن يضخّ الأدرينالين، رغماً عنه، لأن فريقه المفضل فاز بالمباراة!

أنتِ أنثى، وما لكِ في ألاعيب البنات، لا تبتكريها، ولا تعيشين نمطاً من الحياة لإغراء أحد، أنت تعملين على نفسك، تكبحيهـا،تقوّميها، تعملين على روحك، ترقّيـها، تعملين على ذاتك،تصقُليها، تعملين على أخلاقك، تهذّبيها، وذاك كله لأجلك أنتِ، لأنك مشروعكِ الأكبر.

ببساطةٍ هي فكرةٌ واحدة، كي لا تجدي ذاتك بعد مدّة، تائهة، لأجل رجلٍ، جلّ مايهديك إيّـاه هو نصف ابتسامة حمقـى، لأنك أصبتُ ما يحب، دون شغفٍ، ودون وجود، ودونَ جدوى، سِوى أن يمسح على رأسك بكفّيهِ قائلاً: شطّورة.

أنت شاطِـرة، لستِ ، شطّورة.

كبرتِ وتحوّلتِ من مرح، إلى زمـرّدة.

حجرٌ كريم ربّـما، أو كوكـب المفاجآت، واكتشفتِ أنك رقيقةً مثل لون الزمرّد،وقاسيـةً مثل حجرهِ، تعلّمتِ كيف تكون المرأة وطناً وكيف تكون منفـى، وما كنتِ يوماً لا وطناً،ولا منفـى.

أنا...

في الرابعة عشرة، دخلتُ الى المستشفى، أتذكّر يومها كيف كنتُ مرمية على السرير، برداء الموتِ، يتشرّب جلدي أكوام من العقاقير، والأدوية، ويقف فوق رأسي عزرائيل، ينتظر شيئاً لا أعرف ماهو ليقبض روحي..

كان رأس السنة، النّاس في الشارع يحتفلونَ، وأنا في الداخل أموت، كانت المفرقعات تضجّ في السماء، ويضج في أذني طنين لا أعرف ماهو، يدايَ باردتان

وأوردتي وشراييني زرقاءَ مخضرّة، أبدو كومة من اللحم بأوردةٍ كثيرة مرميّة غير قادرة على الحراك، كان نور عيني قد انطفئ، وحُرمت من الرؤية، هناك في الطابق التاسعِ، في كانون الأول، أصارع الغيبوبة بغريزة البقاء لأفيق، لأصحو.

لا أذكر غير أنهم كانوا يبكون فوق رأسي، أصوات مفرقعات، سيارات تمرّ مسرعة تضع أغاني على أقوى عيار، وأنا بين الحياة والموت، معلّقة، روحي حائرة، هل ستنتهي دوامة الحياة في هذا الجسد، وتنتقل إلى جسدٍ آخر؟

أم ستنبعث الحياة فجأة، فأكون طفلة عمياء في الرابعة عشرة، على قيد الحياة؟

لا هذا ولا ذاك، بوم، انفجار قوي، شيءٌ ما أعادني إلى الحياة، فقتُ، انتهت الغيبوبة، وانتهت المسرحيّة، فشلت تدريجياً سيناريوهات الموت، وماتت يوماً بعد يوم،

ولدت الحياة في هذا الجسد من جديد، لا أعرف كيفَ ولمَ، أتذكّر أن نسبةَ بقائي على قيد الحياة كانت عشرة بالمئة، وإن بقيت سأكون عمياء مدى الحياة، لكن الطبيب أخبر والدي أنها معجزة، أؤمن اليوم أني معجزة، الفتاة المعجزة، ومرحباً بالحياة.

كاملةً، بعقلٍ كامل، وروحٍ طريّة، كأنها لم تتهُ يوماً، بجسدٍ ردّ إلى عافيتهِ كأنهُ لم يثقب بإبرة سيرومٍ واحدة، بعينينِ اثنتينِ حلوتينِ،ببصرٍ وبصيرة، عدتُ.

منذ كانون ٢٠١٥/٢٠١٦ آمنت بشيئينِ اثنينِ بقوّة كبيرة، الأول، أن المعجزات تحدث، والثاني، أنّ بقائي على كوكب الأرض هذا، كان لسبب.

لأن حالة موتي كانت عاديّة، متوقعة، ولديها الأسباب الكافية، لكن لأسباب الحياة رأي آخر.

من يومها إلى الآن وأنا أفتش عن الأسباب، حتى صرت سيدة الأخذِ بالأسباب، كل شيء يحدثُ لسبب، حتى تلك الحمامة التي ما فارقت شباك غرفتي في المستشفى، كانت لسبب.

كانت تجيء كل صباح، تقف على شباكي، تنقر نقرتين لأراها، تومِئ برأسها وكأنها تقول صباح الخير، وتذهب، تعود في المساء تنظر إليّ من خلف

النافذة، حين أكون وحيدة، تطيل البقاء، وحين يكون والديّ بقربي، تلقي عليّ نظرة، وتذهب.

لم تبني عشّاً هناك، ولاكانت تجمعُ القشّ، ولا تضع صغاراً على نافذتي، تلك الحمامة كانت لسبب، تلك سريّ الكبير الذي لن أخبره لأحد، تلك التي أبحث عنها كل يوم في السماء، والتي أفتش عنها في رأس كل حمامة أراها صدفة.

أفكر أحياناً فيما لو متّ يومها، في يوم شتويّ بارد، انتهى دوري في هذه الحياة، بضعُ أيامِ عزاء، بكاء كثير، صورة مكبّرة في صالون المنزل بشريطة سوداء مائلة على الزاوية، شهر، شهرين، ثلاثة... تسعُ سنين.

تسع سنين إلى اليوم، أظن أن أقصى ذكرى كنت سأتركها خلفي هي بضع ثوانٍ، اسمٌ من ثلاثة حروف ميم راء حاء، بعض الصورِ، وأرباع ذكريات..

كيف تهمّني الحياة بعد ذاك اليوم، كيف يهمّني البقاء فيها، كيف أتمسّكُ فيها، كيف يخيفني الموت

وعزرائيل كان على بعد نصف متر من رأسي؟

كيف؟

كيف للدّنيا الآن قيمة، للعلاقات البشريّة، حتّى الأمومة، والعائلة، وأقرب الأصدقاء؟

تسعُ سنين، ذكراي فيها ستكون قد احترقت وتفحّمت وبقي منّها رماد الرّماد.

تضج اليوم في قلبي الحياة، مفعمة بالأمل أنا، مليئة بالحب من رأسي إلى أخمصِ قدميّ، شغوفة حدّ الجنون.

ألم أقل لكم أني زمرّدة؟ كوكب المفاجآت؟

اليوم، وقد تجاوزت الاثنين وعشرينَ عام، وقد كبرت، قد لايفهم واحدكم كيف أقول أني كبرت، وكيف أقول أني نضجت، لكنني وبالمقارنة مع نسختي الطفلة، كبرت جداً..

ألا يُقال أن أول علامات النضج، أن ينهار أمام عينيكَ كل ما كنت تؤمن بهِ؟

طيّب، وإيماناتي التي سُحقت، ألا يحقّ لي أن أعتبرها تذكرة عبوري إلى الجهة الأخرى من ذاتي؟

حين عرفتُ أنّي لن أطير يوماً كعصفورٍ ربيعيّ، حينَ أدركتُ أن طفولتي أعمق من أن تعاد، وأن طريقة شعوري في وقتها، وتلذذي بالأشياء، لن يعاد

أن طعمَ الشّاي سيتغيّر، وسأشرب الشّاي ألف مرة في محاولة الحصول على نكهته الأولى، وأفشل، أن

ساعاتُ المتعة المطلقة أمام شاشة التلفاز، بيدي الأولى الريموت، وبيدي الأخرى سندويشة أعدتها لي ماما،لن تعاد..

ماما.. آه كم سأذكر ذلك الحيوانَ الأصفرَ وأبكي،

أذكر جيداً تلكَ الليلةَ عندما كنت مشارفةً على النّوم،كنت أبدّل وسادتي لأضع النّاعمة الخاصّة بـالنوم وبخفّة أقرب إلى الهلوسة رأيتُ حيواناً أصفر له أرجل كثيرة يمشي مسرعاً تحتَ الوساده.

جمدتُ في أرضي لـِ لحظات.. لأنّ الفتاة التي لا يُخيفها البشرُ تخيفها الحشرات بِشدّة!

ناديت بلا تفكيرٍ أمّي.. جئتني مسرعةً كـَعادتكِ في أخذ الهموم عن عاتقي بسرعة، أذكر حينها كيف أمضيت الخمسة دقائق الأولى أشرح لكِ عن تهيؤاتي،

أمضينا اللّيل كلّه نبحث عنها، قلبتِ الغرفةَ رأساً على عقب غير مباليةٍ بسنينِكِ الخمسين.. وبعد البحث الطويل لم نجد ذاكَ الحيوانَ الأصفر، فقلتِ لي سأنام عندكِ اللّيلة فالحيواناتُ تخافُ الأمهات، ضحكتُ لأكذوبتكِ العذبةَ رغم سنينيَ العشرين،

فقلتُ لكِ: يعني إذا شافتك هلا رح تبطّل تعضّني؟

فقلتِ لي: لا، ليسَ كذلك.. بل لتشعري بالأمان لوجودي بقربكِ إلى أن تغفينَ..

آه يا أمي.. لو يغفى عمري كلّه ولا تتركيني

آه لو أقتسم عمري بالنّصفِ بينيَ وبينكِ!

كانت ليلةً سعيدة، تبادلنا الأحاديثَ اللطيفة كالأصدقاء في ليلِ مبيتِ أحدهما عند الأخرى، كنتُ لا أخاف أن

أبثّك أي فكرةٍ تخطرُ في رأسي، كيفَ لا وأنتِ الصديقة الحبيبة الأختُ قبل الأمّ.

وقتـها سهرتُ أنا وغفوتِ أنتِ..أنتِ التي جئتِ لأنام نمتِ بقربي، مانحةً أيّاي الأمانَ بصوتِ أنفاسك، تلكَ اللحظة اللطيفةَ قتَلتني، لم تشعرني بالأمان، استعمرت ذاكرتي بشكلٍ يصعُب محوه كَكلّ تفاصيل حياتي معكِ سلام.

أحبّ أحياناً أن أبقى بعيدةً عن هذه العائلة، لأن انتماءاتنا قويّة، كيفَ أكبرُ وأستوعب أنّ الحياة ستفرقنا يوماً؟

أليسَ نضجاً؟

حينَ رأيتُ كيف يسترخصُ عالم الكبار الحبّ، كيف يستبيحونهُ، ويتذرّعون بهِ لتبرير غرائزهم، كيف تغلبهم أحياناً، وكيف بثانية قد يتحول الإنسان، إلى حيوان.

كيف يعتقدون أن الحبّ هو رغبة النوع، النوع البشريّ، وليس رغبة الذات.

حينَ عرفتُ أن الإنسان، سموّه، به طبيعة حيوانيّة، حين قرأت كتاب حيونة الإنسان لممدوح عدوان، ولم أنهيهِ، لأنه لا يتناسبُ وخيالاتي الورديّة.

حين أعدتُ مشاهدة مسلسل أهل الغرام، ولم أعد مأخوذة بقداسة الحب في تلك المشاهد.

حين عرفت أن دارغمبول وسبونجبوب غير حقيقين، وأنّي حين أقفُ في المطبخ، أستعمل سبونجبوب لأنظف الأطباق.

حينَ صرت مثل شفيق، دائما عبوسة بلا سبب، هو صدام ربّما، هو ضريبة نضج، هو ضريبة عقل لا يهدأ.

لا شيء أحلى من شعور المرة الأولى، وأنا الآن وهنا، لربّما قد جربت المرة الأولى من كل فعل وكل قول، وقد استهلكت كلّ مرّاتي الأولى، سأظلّ ما تبقّى من العمر أحاول قَولبة شعوري على شكل المرّة الأولى، وسأظل أفشل في ذلك.

أليسَ هذا نضجاً؟

أعتقد الإجابة نعم، نضج، أغلبهُ على الأقل، إذا اعتبرت أنه بمراحل عدّة، فتلكَ مرحلتي الأولى.

يؤلمني كيف صار الإنسان عبداً للتكنولوجيا، بكلّ ما تعنيه كلمة عبد من معنى، يؤلمني أنه لم يعد من ناجٍ، ولا حتى أم الطنافس..

يؤلمني كيف يقلّدون، تقليداً أعمى، ما يقوم به الغرب، وينسون أننا أصل الثقافة، وأصل الحضارة، ينسون إننا عَرب.

يؤلمني جيل المراهقينَ، أيّ شباب ينتظرك يا مستقبل!

أين شباب سبيستون،أين شباب المستقبل!

حينَ أقول يؤلمني، أضع نفسي في موضع الغلط، فأن تكون مستقيماً بين كومةِ معوجّينَ، يبيح لهم إتخاذك مادة للنميمة.

يؤلمني القطيعُ، وكيفَ" أخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ"

لكني لستُ هنا للتقييم، ولا لإصلاح العالم.

بل سأكتفي بأن أجرّد الكونَ من ملازمة أحلامي، سأوازيه معي، لن نلتقي يوماً، سأكون من يؤثّر، لا من يتأثّر.

لستُ شخصاً اجتماعياً، بل أؤمن أنّ كلّ اجتماعيّ منافق، وعلى ذلك، دائرتي صغيرة جداً، يحيطُ بي المتعاليينَ عن السخافات، المدركينَ، وأعقلُ المجانين، أحب هذا النوع من الأشخاص،أحبّ من يشكل لوجودي قيمةً مضافة، رفيقتي، التي أفسّر معها الناس، والحياة، والتصرفات، التي نسقطُ كل المفاهيم على الواقع، نجرّب سويّةً ونستنتج، ونضع قاعدة، نمشي عليها، فلا نقع، نسهرُ في الليل مع صوت أم كلثوم، نتحاور في المستقبل، ونحللّ الماضي، لأننا ندرك أن حاضرنا هو نتاج ماضينا، وبنفس الطريقة نسعى، لأن يكون حاضرنا مدروساً قدر الإمكان، لمستقبلٍ أحلى.

أحبّكِ سيلين..

رَفيقي، الذي نمضي ساعاتٍ يشغلُنا الحضارة المصرية القديمة، الآلهة الإغريقيّة، الأهرامات، السّعي، وحتميّة الوصول، الأحلام الساذجة، البسيطة والمضحكة، والأخرى الكبيرة، علم الفراسة ولغة الجسد، الهندسة، والأسلوب، واللغة، وكثيرٌ من الموسيقا.

الذي علّمني أن الأسود لا يخون، لكنّ الأبيضَ يفعل، لأن عينيهِ تصبح حمراء حين يغضب، فيغدو الأبيضَ أحمر، ويبقى الأسودَ أسود.

وجدتُ أنه مامِن سعادة بالمطلق، بل مامن سعادة، نهائياً، هي فقط أنصاف ضحكات، وبضعُ مكيالاتٍ من الرضا، أمضيتُ وقتاً لا بأس به، اسأل وأفتش، هل السعادة قرار، أم خيار؟

فوجدتها غير موجودة، ولا بأس، بأقلّ الاحتمالات هكذا، أقلتُ عقلي من رحلة البحث عنها، عن شيء غير حقيقيّ، ووجهّتني إلى الموجودات فقط، إلى التطوّر، والرضا، والإنسانية، إلى الرحمة، والمغفرة، والتصالح مع الذات، إلى الإيمان، والسّعي، إلى الحبّ.

والآن.. لكَ عزيزي القارئ:

أسماني والدِي، مـَرح.

في حينها، كانَ اسمي أوّل الاحتمالات التي لفظتها مخيّلتهُ، وأوّل اسمٍ لفظتهُ شفتاه، وأوّل اسمٍ قررّوا اختياره، لم يكن هناك خياراتٍ أخرى، ولا تآويل أو تحيّراتٍ وشكوك، كان اسمي وليدَ لحظة،بدونِ تفكير، مـرَح ، فـكنتُ أوّل مـرحَ في حياتهما، وفي حياتي.

أحاول أن أفكّر في ورديّة خيالات أبي حينها، بأنّي سأكون، فراشةً صيفيّة، تنشرُ المرحَ أينما مرّت وكأنها ترمي شيئاً من ذاتها، كفتاةٍ تحملُ دلوَ ماءٍ وتسقطُ الماء عنوةً هنا وهناك.

فوجدتني لا أتكلّف في الفضيانِ بالحبّ والمرح، أُعطيه بكلّ رحابة صدرٍ للسماء، للطبيعة، للأشجار، للاطفال وللأطفال بكثرة.

أحببتُ اسمي كثيراً، كنت مرح الوحيدة في صفّي المدرسيّ ،والوحيدة في دفعة الجامعة، الوحيدة في العائلة، والوحيدة في الحيّ، تفرّدت باسمي، وكنتُ أنزعجُ للغاية إذا ما ناداني أحدهم يوماً بفرح، تلك النقطة ليست لي،

أنا حرّة، واسمي حرّ مثلي، لا يفقد معناه بإزالة نقطة، ولا يزداد جمالاً بإضافتها.

كبرتُ، وأدركتُ أن لكل امرئ من اسمه نصيب، وكان نصيبي الأكبرُ هو العفويّة، وأدركتُ أيضاً أن «عينينا هني أسامينا» وحملتُ شيئاً من روح اسمي في عيوني.

ولـدتُ في يومِ عيد الأمّ، ومن يومها وأنا أهبُ الأشياءَ، كل الأشياءِ، أمومتي.

لا أدري كيف قادَت الاحتمالات والدتي إلى ذاك اليومِ بالتحديد، دون سبقِ معرفة، فخصّني الله فيه على سبيلِ الوِفرة بجزء صغير من عاطفةِ الأمومـة، بدأتُ أمنحها مذ كنتُ طفلة، ولا زلتُ حتى الآن، أثمنُ وأبهى ما أملكُ عاطفتي، وأصعب وأكثرُ ما يوجعُني، عاطفتــي.

أحببتُ أن أهدي نفسي، هذا الكتاب، لا لشيء غير أنّي رأيت صورتي وأنا طفلة، جعلتُ أتأملها لساعةٍ تقريباً، ووجدت بعاطفةٍ شديدة أنّه لديّ الكثير لأقولهُ لصغيرتي الطفلة، حينَ كانت أقصى تخيّلاتي عن عمري العشرينيّ، أنّي سأكونُ حرّة، وربّما سعيدة.

زمرّدة هو اسم أطلقتهُ على نفسي، حين وجدتني متفرّدة كلون الزّمرّد وقاسيةً كحجرهِ،وحينَ وجدتني كوكبَ المفاجآت

قد أبدو لكم زمردة، لكن داخلي هو مرح.

تمّـت.

الـلاذقيــّة ٢٠٢٤/٥/١٠

تأليف: مرح نمر

Facebook: Marah Mohammad Nmr
Instagram: marahmohammadnmr

تصميم الغلاف: راما الجندي

Instagram: Rama.designhouse

زمردة

أحببتُ أن أهدي نفسي، هذا الكتاب، لا لشيء غير أنّي رأيت صورتي وأنا طفلة، جعلتُ أتأملها لساعةٍ تقريباً، ووجدت بعاطفةٍ شديدة أنّه لديّ الكثير لأقولهُ لصغيرتي الطفلة، حينَ كانت أقصى تخيّلاتي عن عمري العشرينيّ، أنّي سأكونُ حرّة، وربّما سعيدة. زمرّدة هو اسم أطلقتهُ على نفسي، حين وجدتني متفرّدة كلون الزّمرّد وقاسيةً كحجرهِ،وحينَ وجدتني كوكبَ المفاجآت قد أبدو لكم زمردة، لكن داخلي هو مرح.

تأليف: مرح نمر

تصميم الغلاف: راما الجندي